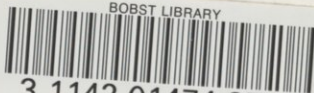


BOBST LIBRARY



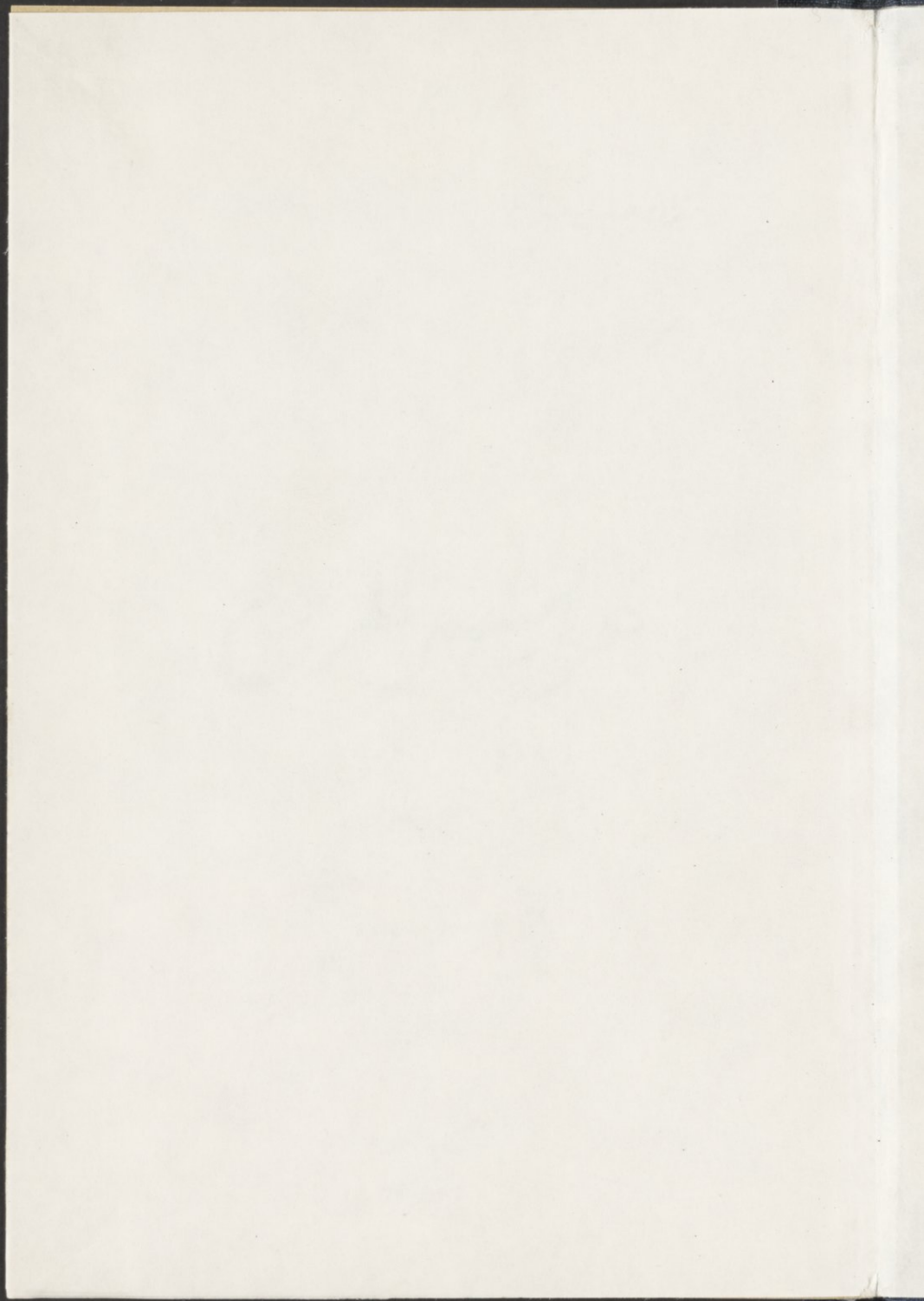
3 1142 01474 3523

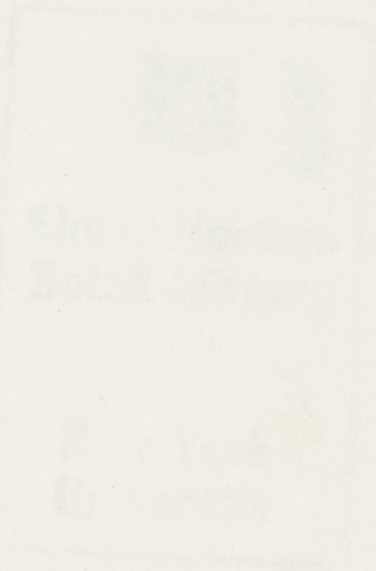


**Elmer Holmes
Bobst Library**



**New York
University**





6628

Gibran, Khalil.

X.3

"

8

جبران خليل جبران

/Arā'is al-murūj/

عرائس المروج



مكتبة صنادير

بيروت

3897

PJ
7826
.I2
A9
1949
c.1

الحقوق محفوظة لكتبة صادر

الطبعة الأولى

بطبعة النااهل

١٩٤٩ - ٥

JUL 11 1985

رماد الاجيال و النار الخالدة

١

توطئة

(في خريف ١١٦ قبل الميلاد)

سكن الليل ورقدت الحياة في مدينة الشمس^١ وأطفئت
السرج في المنازل المنتثرة حول الهياكل العظيمة القائمة بين اشجار
الزيتون والغار ، وطلع القمر فانسكبت اشعته على بياض
الاعمدة الرخامية المنتصبة كالجبابرة تحفر في هدوء الليل مذابح
الآلهة ، وتنظر تيهياً واعجاباً نحو بروج لبنان الجالسة في الوعر
على جبهات الروابي البعيدة .

في تلك الساعة المملوءة بسحر الهدوء ، الموحدة بين ارواح
النيام واحلام اللانهاية ، جاء ناثان ابن الكاهن ودخل هيكل

١ هي بعابك اي مدينة بعل اله الشمس وقد دعاها الاقدمون مدينة
الشمس (هابوبولس) لانها بنيت لعبادة هذا الاله ، وقد اتفق المؤرخون على
انها كانت اجمل مدينة في سوريا . اما الحراتب الباقية الى يومنا هذا فأكثرها من
بناء الرومانيين بعد فتحهم سوريا .

عشروت^١ حاملاً مشعلاً ، ويبد مرتجفة انار المسارج واوقد
 المباخر فتضاعدت روائح المرّ واللبان ، ووشحت تمثال المعبودة
 بنقاب لطيف يشابه برقع الأماني المحيط بالقلب البشري ، ثم
 ركع امام المذبح المصفّح برفوق العاج والذهب ورفع يديه
 ونظر نحو العلاء ومن عينيه الدموع تستدرّ الدموع ، وبصوت
 تخفضه الغصّات الاليمة وتقطعه اللوعة القاسية صرخ قائلاً :
 رحماك يا عشروت العظيمة - رحماك يا ربّة الحبّ والجمال ،
 ترأفي بي وازيلي يد الموت عن حبيتي التي اختارتها نفسي
 بمشيتك . . . لقد نبت اعاصير الاطباء ومساحيقهم ، وباطلاً
 ضاعت تعازيم الكهّان والعرّافين ، ولم يبق لي غير اسمك
 المقدّس عوناً ومساعداً ، فاستجبي تضرعاتي ، وانظري انسحاق
 قلبي وتوجّع غواطفي ، وأبقي شطر نفسي حياً بجاني ، لنفرح
 بأسرار محبتك ونسعد بجمال الشبيبة المعلنة خنياً بمجدك . من
 هذه الاعماق اصرخ اليك يا عشروت المقدسة . من وراء ظلمة
 هذا الليل استجير بجنانك . فاسمعيني انا عبدك ناثن ابن الكاهن
 حيرام الذي وقف عمره على خدمة مذبحك - قد احببت صبيّة

١ هي ربة عظيمة عند قدماء الفينيقيين عبدوها في صور وصيدا وجيل وبعلبك ،
 وبعض صفاتها قولهم : « موقدة شعلة الحياة وحارسة الشبية » وقد اخذ اليونان
 عبادتها من الفينيقيين ودعوها افروديت ربة الحب والجمال ، والرومان يدعونها
 فينيس .

من بين الصبايا واتخذتها رفيقة فجسدتنا عرائس الجان ونفثن
في جسدها اللطيف لمات علّة غريبة ، ثم بعثن رسول المنيا
ليقودها الى مغاورهنّ السجريّة ، وها هو الآن رابض بقرب
مضجعها ، يزجر كالنمر الجائع ، خيماً عليها بأجنحة السوداء ،
مادّاً مقابضه الحشنة ليغتاها من بين ضلوعي . من اجل ذلك
جئت اليك متذلّلاً ، فارحمني وابقها زهرة لم تفرح بعد بجمال
صيف الحياة ، وطائراً لم يكمل تغريده مسرّته لمجيء فجر
الشيبة . اتقنيا من بين اظفار الموت فنبتهج بأغاني مدائحك ،
مقدمين المحروقات لمجد اسمك ، ناحرين الضحايا على مذبحك ،
مالئين بالخمّر القديم والزيت المطيب آنية خزائنك ، فارشني
بالورود والياسمين وواق هيكلك ، محرّقين البخور والعود
الذكي الرائحة امام تماذك . خلّصينا يا ربّة المعجزات ودعي
المحبة تغلب الموت ، فأنت ربّة الموت والمحبة .

وسكت دقيقة كانت فيها لوعته تسيل دموعاً وتتصاعد
تنهداً . ثم عاد فقال : « اواه ! لقد تضععت احلامي يا
عشوتوت المقدسة وذابت حشاشتي ومات قايي في داخلي والتهب

١ كانت العرب في الجاهلية تقول ان الجنية اذا تعشقت فتى من الانس منعته
من الزواج ، وان فل سحرت عروسه او اماتتها ، وهذه الاعتقادات الشعرية ما
برحت حية في بعض قرى لبنان .

دموعي في عيني ، فأحيني بالرافة وأبقي لي حبيتي . » ودخل اذ
ذاك عبد من عبده واقرب منه ببطء وهمس في اذنه هذه
الكلمات : « لقد فتحت عينها يا سيدي ونظرت حول مضجعها
فلم ترك ثم نادتك بلجاجة فجمت لأدعوك اليها . »

فقام نائان ومشى مسرعاً والعبد يتبعه . ولما بلغ صرحه دخل
حجرة العليلة وانحنى فوق سريرها آخذاً يدها النحيلة بين يديه
مقبلاً شفتيها مراراً كأنه يريد ان ينفخ في جسدها السقيم حياة
جديدة من حياته ، فحوّلت نحوه وجهها الغارق بين المساند
الحريريّة وفتحت اجفانها قليلاً ، وظهر على شفتيها خيال
ابتسامة هي بقية الحياة في جسدها اللطيف ، هي آخر اشعة
من نفسها المودّعة — هي صدى نداء القلب المتسارع نحو الوقوف .
ثم قالت ومقاطع صوتها تشابه انفاس طفل الفقيرة الجائع :
« قد نادني الآلهة يا عريس نفسي ، وجاء الموت ليفصلني عنك ،
فلا تجزع لأن مشيئة الآلهة مقدسة ومطالب الموت عادلة . انا
ذاهبة الآن وكأسا الحبّ والشيببة ما برحمتا طافحتين في ايدينا ،
ومسالك الحياة الجميلة ما زالت منبسطة امامنا . انا راحلة يا
حبيبي الى مسارح الأرواح وسوف اعود الى هذا العالم لأن
عشرتوت العظيمة ترجع الى هذه الحياة ارواح المحبين الذين
ذهبوا الى الابدية قبل ان يتمتعوا بملذّات الحب وغبطة

الشيبة^١ . سوف نلتقي يا ناثان ونشرب معاً ندى الصباح من
كوؤس النرجس ونفرح مع عصافير الحقل بأشعة الشمس .
الى اللقاء يا حبيبي . »

وانخفض صوتها وبقيت شفتاها ترتجفان مثل زهرة اقحاح
ذابلة امام نسيات الفجر ، فضمتها حبيبتها وبلبل عنقها بالعبوات ،
ولمّا قرّب شفتيه من ثغرها وجده بارداً كالثلج ، فصرخ
صراخاً هائلاً ومزّق ثوبه وارتمى على جثتها الهامدة وروحه
المتوجعة تراوح بين لجج الحياة وهاوية الموت .

في هدوء ذلك الليل ارتجفت اجفان الراقدين وجزعت
نساء الحمي وذعرت ارواح الاطفال اذ تبطّنت ملابس الدجى
بنواح مومج وبكاء مرّ وعويل أليم متصاعد من جوانب قصر
كاهن عشتروت .

ولما جاء الصباح طلب القوم ناثان ليعزّوه ويؤاسوه في
مصيبته فلم يجدوه .

وبعد ايام جاءت قافلة من المشرق اخبر زعيمها بأنه رأى

١ قال نبي الاسلام (ص) : « وكنتم امواتاً فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم
ثم اليه ترجعون . » وقال بوذا الهندي : « كنا بالامس في هذه الحياة وقد
جئنا الآن وسوف نعود حتى نصير كاملين مثل الآلهة . »

ثان تائهاً في البرية البعيدة هائماً مع اسراب الغزلان .

مرّت الاجيال ساحقة بأقدامها الخفيفة اعمال الاجيال ،
وبعدت الآلهة عن البلاد وحلّ مكانها آلهة غضوب يلدّها الهدم
ويهبجها التخريب ، فدكّت هياكل مدينة الشمس الفخمة
وتفوّضت قصورها الجميلة ويست حدائقها النضرة ، وأجدبت
حقولها الخصيبة ، ولم يبقَ في تلك البقعة غير طلل بال يعيد
للذاكرة اشباح الامس فيؤلّمها ، ويرجع للنفس صدى تهاليل المجد
القديم فيحزنها .

ولكن الاجيال التي تمرّ وتسحق اعمال الانسان لا تقني
احلامه ، ولا تضعف عواطفه .

فالاحلام والعواطف تبقى ببقاء الروح الكلّي الخالد ، وقد
تتوارى حيناً وتهجع آونة متشبهة بالشمس عند مجيء الليل
وبالقمر عند مجيء الصباح .

في ربيع سنة ١٨٩٠ لمجيء يسوع الناصري

توارى النهار واضمحلاً النور ولمت الشمس وشاحها عن
سهول بعلبك فعاد علي الحسيني^١ امام قطيعه نحو خرائب
الميكل ، وهناك جلس بين الاعمدة الساقطة كأنها أضلع جندي
متروك مزقتها الهيجاء وجرّتها العناصر ، فربض اغنامه
حوله مستأمنة بأنغام شبّابته .

انصف الليل ، وألقت السماء بذور الغد في أعماق
ظلمته ، فتعبت اجفان علي من اشباح اليقظة وكلّت عاقلته من
مرور مواكب الخيالات السائرة بسكينة مخيفة بين الجدران
المهدومة ، فاتكأ على زنده ، واقترّب النعاس ولامس حواسه
بأطراف ثنايا نقابه مثلما يلامس الضباب اللطيف وجه البحيرة
المهادئة ، فنسي ذاته المقتبسة والتقى بذاته المعنويّة الخفية
المفعمة بالاحلام المتوقّعة عن شرائع الانسان وتعاليمه ،
واتسعت دوائر الرؤيا امام عينيه ، وانبسّط له خفايا الاسرار ،
فانفردت نفسه عن موكب الزمن المتسارع نحو اللاشيء

١ الحسينيون قبيلة من العرب تسكن الخيام في سهول بعلبك في ايامنا هذه .

ووقفت وحدها امام الافكار المتناسقة والحواطر المتسابقة ،
ولأول مرّة في حياته عرف او كاد يعرف اسباب المجاعة
الروحية الملاحقة شيبته . تلك المجاعة التي توحد بين حلاوة
الحياة ومرارتها . ذلك الظمأ الجامع بين تأوّه الحنين وسكينة
الاستكفاء . ذلك الشوق الذي لا تزيله اجماد العالم ولا تثنيه
بجاري العمر . لأول مرة في حياته شعر علي الحسيني بعاطفة
غريبة ايقظتها خرائب الهيكل . عاطفة رقيقة هي الذكرى
بمنزلة البخور من المآمر . عاطفة سحرية قد انعكفت على
حواسه انعكاف اناهل الموسيقى على صفوف الاوتار . عاطفة
جديدة قد انبثقت من اللاشيء او من كل شيء ، ومنت
وتدرّجت حتى عانت كلّيته المعنوية وملاّت نفسه بشغف
مدنف بلطفه وتوجع مستعذب بمرارته مستطيب بقساوته .
عاطفة تولدت من خلايا دقيقة واحدة مفعمة بالنعاس ، ومن
دقيقة واحدة تتولد رسوم الاجيال مثلما تتناسل الامم من
نطفة واحدة .

نظر علي نحو الهيكل المهذوم وقد تبدل النعاس بيقظة
روحية فظهرت بقايا المذبح المخذّثة واتضحت اماكن الاعمدة
المرتمية واسس الجدران المتداعية فجمدت عيناه وخنق قلبه ،
ومثل ضريب عاد النور الى عينيه فجأة فصار يرى ويفكر

ويتأمل - يفكر ويتأمل - ومن تموجات التفكير ودوائر
التأمل تولدت في نفسه اشباح الذكرى فتذكر - تذكر
تلك الاعمدة منتصبه بفخر وعظمة . تذكر المسارج والمباخر
الفضية محيطة بتمثال معبودة مهابة . تذكر الكهان الوقورين
يقدمون الضحايا امام مذبح مصفح بالعاج والذهب . تذكر
الصبايا الضاربات الدفوف والفتيان المترنمين بمدايح ربّة الحب
والجمال . تذكر ورأى هذه الصور متضحة لبصيرته المتكهربة
وشعر بتأثيرات غوامضها تحرك سواكن اعماقه . ولكن
الذكرى لا تعيد غير اشباح الاجسام التي نواها فيما غبر من
اعمارنا ولا يرجع الى مسامعنا الا صدى الاصوات التي
وعتها آذاننا . فأيّة علاقة بين هذه التذكارات السحرية وماضي
حياة فتى ولد بين المضارب وصرف ربيع عمره يرعى قطيعاً
من الغنم في البرية ؟

قام علي ومشى بين الحجارة المتقوّضة وتذكاراته البعيدة
تزيح اغشية النسيان عن مخيلته مثلما تزيل الصبيّة نسيج
العنكبوت عن بللور مرآتها . حتى اذا ما بلغ صدر الهيكل
وقف كأنّ في الارض جاذباً يتمسك بقدميه ، فنظر واذا به
امام تمثال مهشّم ملقى على الخضيض ، فركع بجانبه على غير
هدى وعواطفه تندفقت في احشائه مثلما يتسارع نريف الدماء

من جوانب الكلوم البليغة ، ونبضات قلبه تتكاثر وتتهامل
مثل امواج البحر المتصاعدة المنخفضة . فخشع بصره وتأوّه
بمرارة وبكى بكاءً اليماً لأنه شعر بوحدة جارحة وبعاد متلف
فاصل بين روحه وروح جميلة كانت بقربه قبل مجيئه الى هذه
الحياة .

شعر بأن جوهر نفسه لم يكن غير شطر من شعلة متقدّمة
فصلها الله عن ذاته قبيل انقضاء الدهر .

شعر بحفيف أجنحة لطيفة ترفرف بين اضلعه الملتهبة وحول
لفائف دماغه المنحلّة .

شعر بالحبّ القوي العظيم يشمل قلبه ويمتلك انفاسه ، ذلك
الحب الذي يبيع مكونات النفس للنفس ويفصل بتفاعيله بين
العقل وعالم المقاييس والكمية ، ذلك الحب الذي نسمعه متكلماً
عندما تخرس ألسنة الحياة ونراه منتصباً كعمود النور عندما
تجيب الظلمة كل الاشياء . ذلك الحب ، ذلك الاله قد هبط
في تلك الساعة الهادئة على نفس علي الحسيني وايقظ فيها عواطف
حلوة ومرة مثلما تستنبت الشمس الزهور بجانب الاشواك .

ولكن ما هذا الحب ، ومن اين اتى ، وماذا يريد من فتي
رابض مع قطيعه بين تلك الهياكل الرميمة ؟ ما هذه الحمرة
السائلة في كبد لم تحرّكه قط لواحظ الصبايا؟ وما هذه الاغنية

السماوية المتمرّجة في مسامع بدوي لم يطربه بعد شدو النساء ؟
ما هذا الحب ومن اين أتى ، وماذا يريد من علي المشغول
عن العالم بأغنامه وشبابته ؟ هل هي نواة ألفتها محاسن بدوية
بين أعشار قلبه على غير معرفة من حراسه ، ام هو شعاع كان
محتجباً بالضباب وقد ظهر الآن لينير خلايا نفسه ؟ هل هو حلم
سعى في سكبينة الليل ليسخر بعواطفه ، ام هي حقيقة كانت
منذ الازل وستبقى الى آخر الدهر ؟

اغمض عليّ اجفانه المغلقة بالدموع ومدّ يديه كالمتسرّل
المستعطف وارتعشت روحه في داخله ومن ارتعاشاتها المتواصلة
انبثقت الزفرات المتقطّعة المؤلفة بين تذلل الشكوى وحرقة
الشوق ، وبصوت لا يميّزه عن التنهد غير رنات الالفاظ الضعيفة
هتف قائلاً :

« من انتِ ايّها القريبة من قلبي ، البعيدة عن ناظري ،
الفاصلة بيني وبينني ، الموثقة حاضري بأزمة بعيدة منسية ،
أطيف حوريّة جاءت من عالم الخلود لتبيّن لي بطل الحياة
وضعف البشر ام روح مليكة الجان تصاعدت من شقوق
الأرض لتسترق مني عاقلتي وتجهلني سحريّة بين فتیان عشيرتي ؟
من انتِ وما هذا الفتون المميت المحيي القابض على قلبي ؟
وما هذه المشاعر المألثة جوالحي نوراً وناراً ؟ ومن انا وما هذه

الذات الجديدة التي ادعوها (انا) وهي غريبة عني ؟ هل
تجرعت ماء الحياة مع دقائق الاثير فصرت ملاكاً ارى واسمع
خفايا الاسرار ، ام هي خمر وساوس سكرت بها فتعاميت
عن حقائق المعقولات ؟ »

وسكت دقيقة وقد نمت عواطفه وتسامت روحه فقال :
« يا من تبينها النفس وتدنيها ويحجبها الليل ويقصمها - ايتها
الروح الجميلة الحائمة في فضاء احلامي ، قد ايقظت في باطني
عواطف كانت نائمة مثل بذور الزهور المختبئة تحت اطباق
الثالج ، ومررت كالنسيم الحامل انفاس الخمول ولا مست
حواسي فاهتزت واضطربت كأوراق الاشجار ! دعيني اراك
ان كنت لابسة من المادة ثوباً . او مري النوم ان يغمض
اجفاني فأراك بانام ان كنت معتوقة من التراب . دعيني
أمسك . اسمعيني صوتك . مزقي هذا النقاب الحاجب كليتي
واهدمي هذا البناء الساتر الوهيتي وهبيني جناحاً فأطير وراءك
الى مسارح الالء الأعلى ان كنت من سكانها او لامسي عيني
بالسحر فاتبعك الى مكان الجان ان كنت من عرائسها .
ضعي يدك الحفيضة على قلبي وامتلكيني ان كنت حريصاً
باتباعك . »

كان علي يمس في آذان الدجى كلماته المتناسخة عن صدى

نعمة متأيلة في اعماق صدره وبين ناظره ومحيطه تنسل اشباح
الليل كأنها انجزة متولدة من مدامعه السخينة ، وعلى جدران
الهيكل تتمثل له صور سحرية بألوان قوس قزح .

كذا مرّت ساعة وهو فرح بدموعه ، مغتبط بلوعته ، سامع
نبضات قلبه ، ناظر الى ما وراء الاشياء كأنه يرى رسوم هذه
الحياة تضمحلّ ببطء ويحلّ مكانها حلم غريب يحاسنه هائل
بهواجسه ، ومثل نبي يتأمل بنجوم السماء متوقفاً هبوط الوحي
صار ينتظر مآتي الدقائق وتنهيداته المسرعة توقف انفاسه الهادئة ،
ونفسه تتركه وتسبح حوله ثم تعود اليه كأنها تبحث بين تلك
الحرائب عن ضائع عزيز .

لاح الفجر وارتجفت السكينة لمرور نسيماته وسال النور
البنفسجي بين دقائق الاثير ، وابتسم الفضاء ابتسامة نائح لاح له
في الحلم طيف حبيبته ، فظهرت العصافير من شقوق جدران
الحرائب ، وصارت تنتقل بين تلك الاعمدة وتترنّم وتتناجى
متنبئة بمآتي النهار ، فانتصب علي واضعاً يده على جيبته الملتببة
ونظر حوله بطرف جامد ، ومثل آدم عندما فتحت عينيه
نفخة الله صار ينظر مستغرباً كل ما يراه . ثم اقترب من نعاجه
ونادها فقامت وانتفضت ومشت وراءه يهدوء نحو المروج

الخضراء . سار علي امام قطيعه وعيناه الكبيرتان محددتان
بالفضاء الصافي وعواطفه المنصرفه عن المحسوسات تبين له
غوامض الوجود ومستتراته وتريه ما غير من الاجيال وما
بقي منها بلمحة واحدة ، وبلمحة واحدة تنسيه كل ذلك وتعيد
اليه الشوق والحزين ، فيجد ذاته منحجباً عن روح روحه انحجاب
العين عن النور ، فيتنهد ومع كل تنهيدة تنسلخ شعلة من
فؤاده المتقد .

بلغ الجدول المذيع بخبره سرائر الخقول فجلس على ضفته
تحت اغصان الصفصاف المتدلّية الى المياه كأنها تروم امتصاص
عدوبتها ، وانثنت نعاجه ترتعي الاعشاب وندى الصباح يتلمع
على بياض صوفها ، ولم تمرّ دقيقة حتى شعر بتسارع نبضات
قلبه وتضاعف اهتزازات روحه ، ومثل راقد أجفله أشعة
الشمس تحرك وتلقّت حوله فرأى صبيّة قد ظهرت من بين
الاشجار تحمل جرّة على كتفها وتتقدم على مهل نحو الغدير وقد
بلّل الندى قدميها العاريتين .

ولمّا بلغت حافة الجدول وانحنت لتملأ جرّتها التفتت نحو
الحافة المقابلة فالتقت عيناها بعيني علي فشبهت ورمت بالجرّة
ثم تراجع قليلاً الى الوراء وشخصت به شخص ضائع وجد
من يعرفه . . . مرّت دقيقة كانت ثوانياً مثل مصابيح

تهدي قليبيها الى قليبيها مبتدعة من السكينة انغاماً غريبة
تعيد الى نفسيهما صدى تذكارات مبهمه وتبين الواحد منهما
للآخر في غير ذلك المكان محاطاً بصور واشباح بعيدة عن
ذلك الجدول وتلك الاشجار، فكان كل منهما ينظر الى الآخر
نظرة الاستعطاف ويتفرس فيه مستلطفاً ملامحه مضغياً لتنهدياته
بكل ما في عواطفه من المسامح ، مناجياً آياه بكل ما في
نفسه من اللسنة ، حتى اذا ما تمّ التفاهم وتكامل التعارف بين
الروحين عبر علي الجدول مجذوباً بقوة خفية واقرب من
الصبيّة وعانقها وقبّل شفتيها وقبّل عنقها وقبّل عينيها فلم
تبدِ حراكاً بين ذراعيه كأنّ لذّة العناق قد انتزعت منها
ارادتها ، ورقّة الملامسة قد اخذت منها قواها ، فاستسلمت
استسلام انفاس الياسمين لتوججات الهواء ، وألقت رأسها على
صدره كمتعب وجد راحة . وتنهدت تنهيدة عميقة تشير الى
حدوث انبساط في فؤاد منقبض وتعلن ثورات جوانح
كانت راقدة فأفاقت ، ثم رفعت رأسها ونظرت الى عينيه
نظرة من يستصغر الكلام المتعارف بين البشر بجانب السكينة
— لغة الارواح — نظرة من لا يرضى بأن يكون الحبّ روحاً في
اجساد من الالفاظ . مشى الحبيبان بين اشجار الصفصاف
ووحداية كليهما لسان ناطق بتوحيدهما، ومسمع منصت لوشي

المحبة ، وعين مبصرة بمجد السعادة ، تتبعهما الحراف مرتعية
رؤوس الاعشاب والزهور ، وتقابلها العصفير من كل ناحية
مرتلة اغاني السحر !

ولما بلغا طرف الوادي ، وكانت الشمس قد طلعت وألقت
على تلك الروابي رداءً مذهباً، جلسا بقرب صخرة يجتمى البنفسج
بظلمها. وبعد هنيهة نظرت الصبية في سواد عيني علي وقد تلاعب
النسيم بشعرها كأنّ النسيم شفاه خفيّة تووم تقيلها ، وشعرت
بأنامل سحرية تداعب لسانها وشفتيها رغم ارادتها ، فقالت وفي
صوتها حلاوة جارحة :

— قد اعادت عشوتوت وروحنا الى هذه الحياة كيلا نختوم
ملذات الحب ، ومجد الشبية يا حبيبي !

فأغمض علي أجفانه وقد استحضرت موسيقى كلماتها رسوم
حلم طالما رآه في نومه، وشعر بأجنحة غير منظورة قد حملته
من ذلك المكان واوقفته في حجرة غريبة الشكل بجانب سرير
ملقى عليه جئان امرأة جميلة اخذ الموت بهاءها وحرارة شفتيها ،
فصرخ ملتاغاً من هول المشهد ثم فتح اجفانه فوجد تلك الصبية
جالسة بجانبه وعلى شفتيها ابتسامة محبة وفي لظها اشعة الحياة ،
فأشرق وجهه وانتعشت روحه وتضعفت خيالات رؤياه ونسي
الماضي ومآتيه . . .

تعانق الحبيبان وشربا من خمرة القبل حتى سكرا ونام كل
منهما ملتقاً بذراعي الآخر الى ان مال الظل وايقظتهما حرارة
الشمس .

مرتا البانية^١

١

مات والدها وهي في المهد ، وماتت أمها قبل بلوغها العاشرة ، فتركت يتيمة في بيت جارٍ فقير يعيش مع رفيقته وصغارهم من بذور الأرض وثمارها في تلك المزرعة المنفردة بين أودية لبنان الجميلة .

مات والدها ولم يورثها غير اسمه وكوخ حقير قائم بين أشجار الجوز والخور ، وماتت أمها ولم تترك لها سوى دموع الأسي وذلّ التيمّم ، فباتت غريبة في أرض مولدها ، وحيدة بين تلك الصخور العالية والأشجار المحتبكة ، وكانت تسيروا في كل صباح عارية القدمين رثة الثوب وراء بقرة حلب إلى طرف الوادي حيث المرعى الحصب ، وتجلس بظلّ الأغصان متروّمة مع العصافير ، باكية مع الجداول ، حاسدة البقرة على وفرة المأكل ، متأمّلة بنمو الزهور ورفرفة الفراش . وعندما تغيب الشمس ويضئها الجوع ترجع نحو ذلك الكوخ

١. نسبة إلى بان وهي قرية جميلة في شمال لبنان .

وتجلس مع صبية وليّها ملتزمة خبز الذرة مع قليل من الثار
المجففة والبقول المغموسة بالخل والزيت ، ثم تقترش القش
اليابس مسندة رأسها بساعديها وتنام متنهدة متمنية لو كانت
الحياة كلها نوماً عميقاً لا تقطعه الأحلام ولا تليه اليقظة . وعند
مجيء الفجر ينتهرها وليّها لقضاء حاجة فتهبّ من رقادها مرتعدة
خائفة من سخطه وتعنيفه .

كذا مرّت الاعوام على مرّتا المسكينة بين تلك الروابي
والأودية البعيدة ، فكانت تنمو بنمو الأنصاب وتتولد في قلبها
العواطف على غير معرفة منها مثلما يتولد العطر في اعماق
الزهرة ، وتتأهبها الأحلام والهواجس مثلما تتناوب القطعان
مجري المياه ، فصارت صبيّة ذات فكرة تشابه تربة جيدة
عذراء لم تلق بها المعرفة بذوراً ولا مشت عليها أقدام
الاختبار ، وذات نفس كبيرة طاهرة منفيّة بحكم القدر الى
تلك المنزرعة حيث تنقلب الحياة مع فصول السنة كأنها ظلّ
إله غير معروف جالس بين الارض والشمس .

نحن الذين صرفوا معظم العمر في المدن الآهلة نكاد لا
نعرف شيئاً عن معيشة سكان القرى والمزارع المنزوية في لبنان ،
قد سرنا مع تيار المدنية الحديثة حتى نسينا او تناسينا فلسفة
تلك الحياة الجميلة البسيطة المملوءة طهراً ونقاوة ، تلك الحياة

التي اذا ما تأملناها وجدناها مبتسمة في الربيع ، مثقلة في الصيف ،
مستغلة في الخريف ، مرتاحة في الشتاء ، متشبهة بأمناء الطبيعة
في كل ادوارها . نحن اكثر من القرويين مالا وهم اشرف منّا
نفوساً . نحن نزرع كثيراً ولا نخصد شيئاً ، امّا هم فيحصدون
ما يزرعون . نحن عبيد مطامعنا وهم ابناء قناعتهم . نحن
نشرب كأس الحياة ممزوجة بمرارة اليأس والخوف والملل ،
وهم يرتشفونها صافية .

بلغت مرتا السادسة عشرة وصارت نفسها مثل مرآة صقيلة
تعكس محاسن الحقول وقلبياً شبيهاً بجلايا الوادي يرجع صدى
كل الاصوات .

ففي يوم من ايام الخريف المملوءة بتأوّه الطبيعة جلست
بقرب العين المنعقة من اسر الارض انعتاق الافكار من مخيلة
الشاعر تتأمل باضطراب اوراق الاشجار المصفرة وتلاعب الهواء
بها مثلما يتلاعب الموت بأرواح البشر ، ثم تنظر نحو الزهور
فتراها قد ذبلت ويبتس قلوبها حتى تشققت واصبحت تستودع
التراب بذورها مثلما تفعل النساء بالجواهر والحلى ايام الثورات
والحروب .

وبينما هي تنظر الى الزهور والاشجار ، وتشعر معها بألم
فراق الصيف ، سمعت وقع حوافر على حصاء الوادي ، فالتفتت

واذا بفارس يتقدّم نحوها ببطء ، ولما اقترب من العين وقد
 دلّت ملاحظه وملابسه على ترف وكياسة ، ترجّل عن ظهر
 جواده وحيّاه بلطف ما تعودته من رجل قط ، ثم سأله
 قائلاً : « قد تهت عن الطريق المؤدية الى الساحل ، فهل لك
 ان تهديني ايتها الفتاة ؟ » فأجابت وقد وقفت منتصبه كالغصن
 على حافة العين : « لست ادري يا سيدي ولكنني اذهب
 وأسأل وليّي فهو يعلم . » قالت هذه الكلمات بوجل ظاهر وقد
 اكسبها الحياء جمالاً ورقّة ، واذ همّت بالذهاب اوقفها الرجل
 وقد سرت في عروقه خمرة الشيبية وتغيرت نظراته وقال :
 « لا ، لا تذهبي . » فوقفت في مكانها مستغرّبة شاعرة بوجود
 قوّة في صوته تمنعها عن الحراك . ولما اختلست من الحياء
 نظرة اليه رآته يتأمّل بها باهتمام لم تفقه له معنى ويبتسم لها
 بلطف سحري يكاد يبكيها لعذوبته ، وينظر بمودّة وميل
 الى قدميها العاريتين ومعصميهما الجميلين وعنقها الاملس وشعرها
 الكثيف الناعم ، ويتأمّل بافتتان وشغف كيف قد لوّحت
 الشمس بشرتها وقوّت الطبيعة ساعديها ، اما هي فكانت مطرقة
 خجلاً لا تريد الانصراف ولا تقوى على الكلام لأسباب لا
 تدركها .

في ذلك المساء رجعت البقرة الحلوب وحدها الى الحظيرة ،

أمّا مرتا فلم ترجع ، ولما عاد وليّها من الحقل بحث عنها بين
تلك الوهاد ولم يجدها ، فكان يناديها باسمها ولا تجيبه غير
الكهوف وتأوهات الهواء بين الأشجار . فرجع مكتئباً الى
كوخه واخبر زوجته فبكت بسكينة طول ذلك الليل وكانت
تقول في سرّها : رأيتها مرّة في الحلم بين اظافير وحش كاسر
يمزّق جسدها وهي تبسم وتبكي !

هذا اجمال ما عرفته عن حياة مرتا في تلك المزرعة الجميلة ،
وقد تخبرته من شيخ قروي عرفها مذ كانت طفلة حتى شبّت
واختفت من تلك الاماكن غير تاركة خلفها سوى دموع قليلة
في عيني امرأة وليّها ، وذكرى رقيقة مؤثرة تسيل مع
نسيات الصباح في ذلك الوادي ، ثم تضمحلّ كأنها لهاث طفل
على بلّور النافذة .

جاء خريف سنة ١٩٠٠ فعدت الى بيروت بعد ان صرفت العطلة المدرسية في شمال لبنان ، وقبل دخولي الى المدرسة قضيت اسبوعاً كاملاً اتجول مع اترابي في المدينة متمتعين بغبطة الحرية التي تعشقها الشبيبة وتحترمها في منازل الأهل وبين جدران المدرسة ، فكنتنا اشبه بعصافير رأّت ابواب الاقفاص مفتوحة امامها فصارت تشبع القلب من لذة التنقل وغبطة التفريد ، والشبيبة حلم جميل تسترق عدوبته معميات الكتب وتجعله يقظة قاسية ، فهل يجيء يوم يجمع فيه الحكماء بين احلام الشبيبة ولذة المعرفة مثلما يجمع العتاب بين القلوب المتنافرة ؟ هل يجيء يوم تصبح فيه الطبيعة معلمة ابن آدم ، والانسانية كتابه ، والحياة مدرسته ؟ هل يجيء ذلك اليوم ؟ لا ندري ، ولكننا نشعر بسيرنا الحثث نحو الارتقاء الروحي ، وذلك الارتقاء هو ادراك جمال الكائنات بواسطة عواطف نفوسنا واستدرار السعادة بمحبتنا ذلك الجمال .

ففي عشية يوم وقد جلست على شرفة المنزل اتأمل العراك المستمرّ في ساحة المدينة ، واسمع جلبة باعة الشوارع ومناداة

كل منهم عن طيب ما لديه من السلع والمآكل ، اقترب مني
صبي ابن خمس يرتدي اطماراً بالية ويحمل على منكبيه طبقاً
عليه طاقات الزهور ، وبصوت ضعيف يخفضه الذلّ الموروث
والانكسار الأليم قال :

— أتشتري زهراً يا سيدي ؟

فنظرت الى وجهه الصغير المصفرّ ، وتأملت بعينيه
المكحولتين بخيالات التعاسة والفاقة ، وفيه المفتوح قليلاً كأنه
جرح عميق في صدر متوجع ، وذراعيه العاريتين النحيلتين ،
وقامته الصغيرة المهزولة المنحنية على طبق الزهور كأنها غصن
من الورد الأصفر الذابل بين الأعشاب النضرة ، تأملتُ
بكل هذه الأشياء بلمحة مظهرًا شفتي بابتسامات هي أمرٌ
من الدموع ، تلك الابتسامات التي تنشقّ من اعماق قلوبنا
وتظهر على شفاهنا ولو تركناها وشأنها لتصاعدت وانسكبت
من مآقينا . ثم ابتعت بعض زهوره وبغيتي ابتياع محادثته لأنني
شعرت بأن من وراء نظراته المحزنة قلباً صغيراً ينطوي على
فصل من مأساة الفقراء الدائم تمثيلها على ملعب الأيام ، وقلّ
من يهتم بمشاهدتها لأنها موجهة . ولما خاطبته بكلمات لطيفة
استأمن واستأنس ونظر اليّ مستغرباً لأنه مثل اترابه الفقراء
لم يتعود غير خشن الكلام من أولئك الذين ينظرون غالباً الى

صبية الأزقة كأشياء قدرة لا شأن لها ، وليس كنفوس صغيرة
مكلومة بأسهم الدهر . وسألته اذ ذاك قائلاً :

— ما اسمك ؟

فأجاب وعيناه مطرقتان الى الأرض :

— اسمي فؤاد !

قلت : ابن من أنت وابن اهلك ؟

قال : انا ابن مرتا البانيّة .

قلت : وابن والدك ؟

فهزّ رأسه الصغير كمن يجهل معنى الوالد . فقلت :

— وابن امك يا فؤاد ؟

قال : مريضة في البيت .

تجرّعتْ مسامعي هذه الكلمات القليلة من فم الصبي وامتصّها
عواظفي مبتدعة صوراً وأشباحاً غريبة محزنة لأنّي عرفت بلحظة
ان مرتا المسكينّة التي سمعت حكايتها من ذلك القرويّ هي
الآن في بيروت مريضة . تلك الصبيّة التي كانت بالامس
مستأمنة بين اشجار الأودية هي اليوم في المدينة تعاني مضمض
الفقر والايوجاع ، تلك اليتيمة التي صرفت شبيبته على اكفّ
الطبيعة ترعى البقر في الحقول الجميلة قد انحدرت مع جرف

نهر المدينة الفاسدة وصارت فريسة بين اظفار التعاسة والشقاء .
كنت افكر وانخيل هذه الاشياء والصبي ينظر اليّ كأنه
رأى بعين نفسه الظاهرة انسحاق قلبي . ولماً اراد الانصراف
امسكت بيده قائلاً :

— سر بي الى امك لأنني اريد ان اراها !

فسار امامي صامتاً متعجباً ، ومن حين الى آخر كان
ينظر الى الوراء ليرى اذا كنت بالحقيقة متبعباً بخطواته .

في تلك الازقة القذرة حيث يحتمر الهواء بأنفاس الموت ،
بين تلك المنازل البالية حيث يرتكب الاشرار جرائمهم محتبئين
بستائر الظلمة ، وفي تلك المنعطفات الملتوية الى اليمين والى
الشمال التواء الافاعي السوداء كنت اسير بخوف وتهيب
وراء صبي له من حدائته ونقاوة قلبه شجاعة لا يشعر بها من
كان خبيراً بمكايد أجلاف القوم في مدينة يدعوها الشرقيون
عروس سوريا ودرّة تاج السلاطين ، حتى اذا ما بلغنا اذبال
الحي دخل الصبي بيتاً حقيراً لم تبقى منه السنون غير جانب
متداعٍ ، فدخلت خلفه وطرقات قلبي تتسارع كلما اقتربت
حتى صرت في وسط غرفة رطبة الهواء ليس فيها من الاثاث
غير سراج ضعيف يغالب الظلمة بسهام أشعته الصفراء ، وسرير
حقير يدلّ على عوز مبرح وفقير مدقع منظرحة عليه امرأة

فأمة قد حوّلت وجهها نحو الحائط كأنها تحتمي به من مظالم العالم أو كأنها وجدت بين جدرانها قلباً أرقّ وألين من قلوب البشر . ولما اقترب الصبي منها منادياً : « يا امه ! . . » التفتت إليه فرأته يومئ نحوى فتحرّكت اذ ذاك بين اللحف الرثّة ، وبصوت موجع يلاحقه ألم النفس والتنهيدات المرة قالت :

— ماذا تريد ايها الرجل ؟ هل جئت لتبتاع حياتي الاخيرة وتجعلها دنسة بشهواتك ؟ اذهب عني فالأزقة مشحونة بالنساء اللواتي يبعنك اجسادهنّ ونفوسهنّ بأجنس الاثمان ، اما انا فلم يبق لي ما ابيعه غير فضلات انفاس متقطعة ، عمّا قريب يشتريها الموت براحة القبر !

فاقتربت من سريرها وقد آلمت كلماتها قلبي لأنها مختصر حكايتها التعسة ، وقلت متمنياً لو كانت عواطفني تسيل مع الكلام :

— لا تخافي مني يا مرتا، فأنا لم اجيء اليك كحيوان جائع بل كإنسان متوجع . انا لبناني عشت زمناً في تلك الاودية والقرى القرية من غابة الارز . لا تخافي مني يا مرتا !

سمعت كلماتي وشعرت بأنها صادرة من اعماق نفس تتألم معها ، فاهتزّت على مضجعتها مثل القضبان العارية امام رياح

الشتاء ، ووضعت يديها على وجهها كأنها تريد ان تستر ذاتها
من امام الذكرى الهائلة بجلاوتها ، المرة بجمالها . وبعد سكينه
مزوجة بالتأوه ظهر وجهها من بين كتفيها المرتجفتين فرأيت
عينين غائرتين محدقتين بشيء غير منظور منتصب في فضاء
الغرفة ، وشفتين يابستين تحركهما ارتعاشات اليأس ، وعنقاً
تتردد فيه حشرجة النزاع المصحوبة بأنين عميق متقطع ،
وبصوت يبته الالتماس والاستعطاف ويستوجعه الضعف والألم
قالت :

— جئت محسناً مشفقاً فلتجزك السماء عني ان كان الاحسان
على الخطاة يراً والشفقة على المرذولين صلاحاً ، ولكنتي اطلب
اليك ان تعود من حيث اتيت لأن وقوفك في هذا المكان
يكسبك عاراً ومذمة ، وحنانك عليّ يثمر لك عيباً ومهانة .
ارجع قبل ان يراك احد في هذه الغرفة الدنسة المملوءة بأقذار
الخنازير ، وسر مسرعاً ساتراً وجهك بأثوابك كيلا يعرفك
عابرو الطريق . ان الشفقة التي تملأ نفسك لا تعيد اليّ طهارتي ،
ولا تحو عيوي ، ولا تزيل يد الموت القويّة عن قلبي . انا
منفيّة بحكم تعاسي وذنوبي الى هذه الاعماق المظلمة ، فلا
تدع شفقتك تدنيك من العيوب . انا كالأبرص الساكن بين
القبور فلا تقترب منّي ، لأن الجامعة تحسبك دنساً وتقصيك

عنها اذا فعلت . ارجع الآن ولا تذكر اسمي في تلك الأودية
المقدسة ، لأن النعجة الجرباء ينكرها راعبها خوفاً على قطيعه .
وإذا ذكرتني قل قد ماتت مرثا البانبة ولا تقل غير ذلك .

ثم أخذت يدي ابنها الصغيرتين وقبلتهما بلهفة وقالت
متنبهة :

— سوف ينظر الناس الى ولدي بعين السخرية والاحتقار
قائلين : هذا ثمرة الاثم ، هذا ابن مرثا الزانية ، هذا ابن العار ،
هذا ابن الصدق . سوف يقولون عنه اكثر من ذلك ، لأنهم
عميان لا يبصرون ، وجهلاء لا يدرون أن امه قد طهرت
طفولته بأوجاعها ودموعها ، وكفرت عن حياته بتعاستها
وشقاها . سوف أموت وأتركه يتيماً بين صبيان الأزقة
وحيداً في هذه الحياة القاسية ، غير تاركة له سوى ذكرى هائلة
تجعله ان كان جباناً خاملاً وتهيج دمه ان كان شجاعاً عادلاً ،
فإن حفظته السماء وشبّ رجلاً قوياً ساعد السماء على الذي
جنى عليه وعلى امه ، وان مات وتملّص من شبكة السنين
وجدني متوقّبة قدومه هناك حيث النور والراحة !

فقلت وقلبي يوحي اليّ : « لست كالأبوص يا مرثا وان
سكنت بين القبور ، ولست دنسة وان وضعتك الحياة بين
ايدي الدنسين . ان ادران الجسد لا تلامس النفس النقية ،

والثلوج المتراكمة لا تमित البذور الحيّة ، وما هذه الحياة
سوى بيدر أحزان تدرس عليه أغمار النفوس قبل ان تعطي
غلتها ، ولكن ويل للسنابل المتروكة خارج البيدر ، لأن
نمل الأرض يحملها وطيور السماء تلتقطها ، فلا تدخل أهراء
ربّ الحقل . انتِ مظلومة يا مرثا وظالمك هو ابن القصور ،
ذو المال الكثير والنفس الصغيرة . انتِ مظلومة ومحتقرة ،
وخير للانسان ان يكون مظلوماً من ان يكون ظالماً ،
وأخلق به ان يكون شهيد ضعف الغريزة الترابية من ان
يكون قويّاً ساحقاً بمقابضه زهور الحياة ، مشوّهاً بيموله
محاسن العواطف . النفس يا مرثا هي حلقة ذهبيّة مفروطة من
سلسلة الالهية ، فقد تصهر النار الحامية هذه الحلقة وتغيّر
صورتها وتمحو جمال استدارتها ، لكنها لا تحيل ذهبها الى
مادة اخرى ، بل تزيد لمعاناً . ولكن ويل للهشيم اذ تأتي
النار وتلتهمه وتجعله رماداً ثم تهبّ الرياح وتذريه على وجه
الصحراء . . . اي مرثا ، انتِ زهرة مسحوقه تحت أقدام
الحيوان المختبئ في الهياكل البشرية . قد داستك تلك النعال
بقساوة ، لكنها لم تحف عطرك المتصاعد مع نواح الأرامل
وصراخ اليتامى وتهديدات الفقراء نحو السماء مصدر العدل
والرحمة . تعزّي يا مرثا بكونك زهرة مسحوقه ولستِ قدماً
ساحقة !

كنت اتكلم وهي مصغية وقد انارت التعزية وجهها
المصفر مثلما تنير أشعة المغرب اللطيفة خلایا الغيوم . ثم
أومات الي ان اجلس على جانب السرير ، ففعلت مسائلأ
ملاحظها المتكلمة عن محبآت نفسها الحزينة . ملامح من عرف
انه مائت . ملامح صبيّة في ربيع العمر قد شعرت بوقع اقدم
الموت حول فراشها البالي . ملامح امرأة متروكة كانت بالأمس
بين اودية لبنان الجميلة مملوءة حياة وقوّة ، فصارت اليوم
مهزولة تترقب الانعتاق من قيود الحياة . وبعد سكينه
مؤثرة جمعت فضلات قواها وقالت ودموعها تتكلم معها
ونفسها تتصاعد مع انفاسها :

— نعم ، انا مظلومة ، انا شهيدة الحيوان المختبيء في
الانسان ، انا زهرة مسحوقه تحت الأقدام . كنت جالسة على
حافة ذلك الينبوع عندما مرّ راكباً . . . قد خاطبني بلطف
ورقة وقال لي اني جميلة وانه قد احبني فلا يتركني ، وان
البرية مملوءة وحشة والأودية هي مساكن الطيور وبنات
آوى . . . ثم الوى عليّ وضمني الى صدره وقبلني ، وكنت
لم اذق حتى تلك الساعة طعم القبلة لأنني كنت يتيمة متروكة .
اردفني خلفه على ظهر الجواد وجاء بي الى بيت جميل منفرد .
ثم أتى بالملابس الحريرية والعطور الزكية والمآكل البذيذة

والمشارب الطيبة . . . فعل كل ذلك مبتسماً ساتراً بشاعة
ميوله وحيوانية مرامه بالكلام اللطيف والاشارات المستحبة . . .
وبعد ان أشبع شهواته من جسدي وأثقل بالذلّ نفسي غادرني
تاركاً في احشائي شعلة حيّة ملتهبة تغذت من كبدي ونمت
بسرعة ثم خرجت الى هذه الظلمة من بين دخان الأوجاع
ومرارة العويل . . . وهكذا قسمت حياتي الى شطرين : شطر
ضعيف متألّم ، وشطر صغير يصرخ في هدوء الليل طالباً
الرجوع الى الفضاء الواسع . في ذلك البيت المنفرد تركني
الظلموم ورضيعي نقاسي مفض الجوع والبرد والوحدة ، لا
معين لنا غير البكاء والنحيب ، ولا سمير سوى الخوف
والهواجس . . .

وعلم رفاقه بمكاني وعرفوا بعوزي وضعفي ، فجاء الواحد
بعد الآخر وكلّ يبتغي ابتياع العرض بالمال ، واعطاء الجبّز
لقاء شرف الجسد . . . آه كم قبضت على روجي بيدي لتقدمها
للابدية ، ثم افلتتها لأنها لم تكن لي وحدي ، فشريكها كان
ولدي الذي ابعده السماء عنها الى هذه الحياة ، مثلما اقصتني
عن الحياة وألقتني في اعماق هذه الهاوية . . . والآن هاهي
الساعة قد دنت وعريسي الموت قد جاء بعد هجرانه ليقودني
الى مضجعه الناعم !

وبعد سكينه عميقة تشابه مس الأرواح المتطايرة ، رفعت
عينها المحجوبتين بظل المنية وقالت بهدوء :

— ايها العدل الحفي ، الكامن وراء هذه الصور المخيفة ، انت ،
انت السامع عويل نفسي المودعة ونداء قلبي المتهامل ، منك
وحده اطلب واليك اتضرع ، فارحمي وارعَ بيناك ولدي ،
وتسلّم بيسراك روحي !

وخارت قواها وضعفت تنهداتها ، ونظرت الى ابنها
نظرة حزن وحنو ، ثم ميّلت عينها ببطء ، وبصوت يكاد
يكون سكينه قالت : « أبانا الذي في السموات ... ليتقدّس
اسمك ... ليأت ملكوتك . . . لتكن مشيئتك كما في السماء
كذلك على الارض . اغفر لنا ذنوبنا . »

وانقطع صوتها ، وبقيت شفتها متحركتين هنيهة وبوقوفهما
هدمت كل حركة في جسدها . ثم اختلجت وتأوهت وايضاً
وجها وفاضت روحها . وظلّت عيناها محدقتين بما لا يرى .

عندما جاء الفجر وُضعت جثة مرثا البانيّة في تابوت خشبي ،
وحملت على كتفي فقيرين ودُفنت في حقل مهجور بعيد عن
المدينة . وقد رفض الكهّان الصلاة على بقاياها ولم يقبلوا ان

ترتاح عظامها في الجبانة حيث الصليب يخفر القبور ، ولم يشيّعها
الى تلك الحفرة البعيدة غير ابنها وفقى آخر كانت مصائب هذه
الحياة قد علمته الشفقة .

يوحنا المجنون

١

في ايام الصيف كان يوحنا يسير كل صباح الى الحقل سائفاً
ثيرانه وعجوله ، حاملاً محراثه على كتفيه ، مصغياً لتغايريد
الشحارير وحفيف اوراق الأغصان ، وعند الظهيرة كان يقترب
من الساقية المتراكضة بين منخفضات تلك المروج الخضراء
ويأكل زاده تاركاً على الاعشاب ما بقي من الحُبز للعصافير .
وفي المساء عندما ينتزع المغرب دقائق النور من الفضاء ،
كان يعود الى البيت الحقيير المشرف على القرى والمزارع في
شمال لبنان ، ويجلس بسكينة مع والديه الشيخين مصغياً
لأحاديثهما المملوءة بأخبار الايام شاعراً بدنو النعاس والراحة
معاً .

وفي أيام الشتاء كان يتكلم مستدفئاً بقرب النار ، سامعاً
تأوُّه الارياح وندب العناصر، مفكراً بكيفية تتابع الفصول ،
ناظراً من الكوة الصغيرة نحو الاودية المكتسية بالثلوج ،
والاشجار العارية من الاوراق كأنها جماعة من الفقراء تتركوا

خارجاً بين اظفار البرد القارس والرياح الشديدة .

وفي الليالي الطويلة كان يبقى ساهراً حتى ينام والده ثم يفتح الخزانة الحشيشة ويأتي بكتاب العهد الجديد ، ويقراء منه سرّاً على نور مسرجة ضعيفة ، متلفتاً بتحذّر بين الاونة والاخرى نحو والده النائم الذي منعه عن تلاوة ذلك الكتاب لأن الكهنة يهنون بسطاء القلب عن استطلاع خفايا تعاليم يسوع ويحرمونهم من « نعم الكنيسة » اذا فعلوا .

هكذا صرف يوحنا شببته بين الحقل المملوء بالمحاسن والعجائب وكتاب يسوع المفعم بالنور والروح . كان سكوتاً كثير التأملات يصغي لأحاديث والديه ولا يجيب بكلمة ، ويلتقي بأترابه الفتيان ويجالسهم صامتاً ناظراً الى البعيد حيث يلتقي الشفق بازرقاق السماء . واذا ما ذهب الى الكنيسة عاد مكتئباً ، لأن التعاليم التي يسمعها من على المنابر والمذابح هي غير التي يقرأها في الانجيل ، وحياة المؤمنين مع رؤسائهم ، هي غير الحياة الجميلة التي تكلم عنها يسوع الناصري .

جاء الربيع واضمحل الثلوج في الحقول والمروج، وأصبحت بقاياها في اعالي الجبال تذوب وتسير جداول جداول في

منعطفات الاودية ، وتجتمع انهرًا غزيرة تتكلم بهديرها عن
يقظة الطبيعة ، فأزهرت أشجار اللوز والنفاح ، وأورقت
قضبان الحور والصفصاف ، وانبتت الروابي اعشابها وازاھرھا ،
فتعب يوحنا من الحياة بجانب المواعد ، وعرف بأن عجوله
قد ملّت ضيق المراض ، واشتاقت الى المراعي الخضراء ،
لأن مخازن التبن قد شحّت ، وزنابل الشعير قد نفدت . فجاء
وحلّها من معالفها وسار امامها الى البوية ساتراً بعباءته كتاب
العهد الجديد كيلا يراه أحد ، حتى بلغ المرجة المنبسطة على
كتف الوادي بقرب حتمول الدير القائم كالبرج الهائل بين تلك
المضاب^١ ، فتفرقت عجوله مرتعية الاعشاب ، وجلس مستنداً
الى صخرة يتأمّل تارة بجمال الوادي وطوراً بسطور كتابه
المتكلمة عن ملكوت السموات .

كان ذلك النهار من اواخر ايام الصوم ، وسكان تلك
القرى المنقطعون عن اللحوم ، اصبحوا يترقبون بفضلات الصبر
مجبيء عيد الفصح . امّا يوحنا ، فمثل جميع المزارعين الفقراء
لم يكن يفرّق بين ايام الصيام وغيرها ، فالعمر كله كان صوماً
طويلاً عنده ، وقوته لم يتجاوز قط الحُبز المعجون بعرق الجبين ،

١ هو دير غني في شمال لبنان واسع الأراضي ، يدعى دير الشاع النبي ، يقطنه
عشرات من الرهبان المعروفين بالحسين .

والثار المتباعدة بدم القلب ، فالانتطاع عن اللحوم والماكل
الشبهة كان طبيعياً . ومشتبهات الصوم لم تكن في جسده بل
في عواطفه ، لأنها تعيد الى نفسه ذكرى مأساة « ابن البشر »
ونهاية حياته على الارض .

كانت العصافير ترفرف متناجية حول يوحنا، وأسراب الحمام
تتطاير مسرعة ، والزهور تتمايل مع النسيم كأنها تتعجم بأشعة
الشمس ، وهو يقرأ في كتابه بتمعن ثم يرفع رأسه ويرى
قرب الكنائس في المدن والقرى المنشورة على جانبي الوادي ،
ويسمع طنين أجراسها فيغمض عينيه وتسبح نفسه فوق أشلاء
الاجيال الى اورشليم القديمة متبعة أقدام يسوع في الشوارع
سائلة العابرين عنه فيجيبونها قائلين : - هنا شفى العميان
واقام المقعدين . وهناك ضفروا له اكليلاً من الشوك ووضعوه على
رأسه - في هذا الرواق وقف يكلم الجموع بالامثال ، وفي
ذلك القصر كنتفوه على العمود وبصقوا على وجهه وجلدوه -
في هذا الشارع غفر للزانية خطاياها ، وفي ذاك وقع على
الارض تحت اثقال صليبه .

ومرّت الساعة ويوحنا يتألم مع الاله الانسان بالجسد ،
ويتمجد معه بالروح ، حتى اذا ما انتصف النهار قام من مكانه
ونظر حوله فلم يرَ عجوله ، فمشى ملتفتاً الى كل ناحية مستغرباً

اختفائها في تلك المروج السهلة . ولما بلغ الطريق المنحنية
بين الحقول انحناء خطوط الكف رأى عن بعد رجلاً بملابس
سوداء واقفاً بين البساتين ، فأسرع نحوه ، ولما اقترب منه
وعرف انه احد رهبان الدير ، حيّاه بإحناء رأسه ثم سأله قائلاً:
« هل رأيت عجولاً سائرة بين هذه البساتين يا ابتاه ؟ » فنظر
اليه الراهب متكلِّفاً اخفاء حنقه . وأجاب بجنبث : « نعم رأيتها
فهي هناك ، تعال وانظرها . » فسار يوحنا وراء الراهب حتى
بلغا الدير ، فإذا بالعجول ضمن حظيرة واسعة موثقة بالجبال
يخفرها أحد الرهبان وفي يده نبوت يجلدها به كيفما تحركت ،
واذ هم يوحنا ليقودها أمسك الراهب بعباءته والتفت نحو
رواق الدير وصرخ بأعلى صوته : « هوذا الراعي المجرم قد
قبضت عليه . » فهرول القسس والرهبان من كل ناحية يتقدمهم
الرئيس وهو رجل يمتاز عن رفاقه بنحافة اثنابه وانقباض
سحته ، واحاطوا بيوحنا كالجنود المتسابقة على الفريسة ،
فنظر يوحنا الى الرئيس وقال بهدوء : « ماذا فعلت لأكون
مجرماً ، ولماذا قبضتم عليّ ؟ » فأجابه الرئيس وقد بانت التساوة
على وجهه الغضوب ، وبصوت خشن أشبه بصيرير المناشير قال :
« قد ارتعت عجولك زرع الدير وقضمت قضبان كرومه ،
فقبضنا عليك لأن الراعي هو المسؤول عما تجربه مواشيه . »

فقال يوحنا مستعظفاً: «هي بهائم لا عقل لها يا ابتاه ، وانا فقير لا املك غير قوى ساعدي وهذه العجول ، فاتركني اقودها واسير واعداً اياك بأن لا أجيء الى هذه المروج مرة اخرى . » فقال الرئيس وقد تقدم قليلاً الى الأمام ورفع يده نحو السماء : « ان الله قد وضعنا هنا ووكّل الينا حماية اراضي مختاره اليساع العظيم ، فنحن نحافظ عليها ليلاً ونهاراً بكل قوانا لانها مقدسة ، وهي كالنار تحرق كل من يقترب منها ، فاذا امتنعت عن محاسبة الدير انقلبت الاعشاب في أجواف عجولك سموماً آكلة ، ولكن ليس من سبيل الى الامتناع لأننا نبقي بهائمك في حظيرتنا حتى تفي آخر فلس عليك . »

وهمّ الرئيس بالذهاب فأوقفه يوحنا ، وقال متدلاً متوسلاً : « استحلفك يا سيدي بهذه الايام المقدسة ، التي تألم فيها يسوع وبكت لأحزانها مريم ، ان تتركني اذهب بعجولي . لا تكن قاسي القلب عليّ ، فأنا فقير مسكين والدير غني عظيم ، فهو يسامح تهاملي ويرحم شيخوخة والدي . » فالتفت اليه الرئيس وقال بهزء : « لا يسامحك الدير بمثقال ذرة ايها الجاهل ، فقيراً كنت أم غنياً ، فلا تستحلفني بالاشياء المقدسة لأننا اعرف منك بأسرارها وخفاياها ، وان شئت ان تقود عجولك من هذه المرايض فافتدها بثلاثة دنانير لقاء ما التهمت من الزرع . »

فقال يوحنا بصوت محتقن : « انني لا املك بارة واحدة يا ابتاه .
فاشفق عليّ وارحم فقري . » فأجاب الرئيس بعد ان مشطّ
لحيته الكثيفة بأصابعه : « اذهب وبع قسماً من حقلك وعد
بثلاثة دنانير ، فخير لك ان تدخل السماء بلا حقل من ان
تكتسب غضب اليشاع العظيم باحتجاجك امام منبجه ، وتهبط في
الآخرة الى الجحيم حيث النار المؤبدة . »

فسكت يوحنا دقيقة وقد ابرقت عيناه وانبسط محيّا
وتبدلت لوائح الاسترحام بلامح القوّة والارادة ، فقال بصوت
تمتّزج فيه نعمة المعرفة بعزم الشبية : « هل يبيع الفقير حقله
منبت خبزته ومورد حياته ليضيف ثمنه الى خزائن الدير المفعمة
بالفضة والذهب ؟ أمن العدل ان يزداد الفقير فقراً ويموت
المسكين جوعاً كما يغفر اليشاع العظيم ذنوب بهائم جائعة ؟ »
فقال الرئيس هازئاً رأسه استكباراً : هكذا يقول يسوع
المسيح « من له يعطى ويزاد ، ومن ليس له يؤخذ منه . »

سمع يوحنا هذه الكلمات فاضطرب قلبه في صدره ،
وكبرت نفسه ، وتعالق قامته عن ذي قبل ، كأنّ الارض
قد نمت تحت قدميه ، فانتشل الانجيل من جيبه كما يستلّ الجندي
سيفه للمدافعة ، وصرخ قائلاً : « هكذا تتلاعبون بتعاليم هذا
الكتاب ايها المراؤون . هكذا تستخدمون أقدس ما في الحياة

تعميم شرور الحياة . فويل لكم اذ يأتي « ابن البشر » ثانية
ويخرب اديرتكم ويلقي حجارتها في هذا الوادي ، محرقاً بالنار
مذابحكم ورسومكم وتماميكم ! ويل لكم من دماء يسوع الزكيمة
ودموع امه الطاهرة ، اذ تنقلب سيلاً عليكم وتجرفكم الى
أعماق الهاوية ! ويل وألف ويل لكم ايها الخاضعون لأصنام
مطامعكم ، الساترون بالاثواب السوداء اسوداد مكروهاتكم ،
المحرّكون بالصلاة شفاهم وقلوبكم جامدة كالصخور ،
الراكون بتدلل امام المذابح ونفوسكم متمردة على الله . قد
قدموني بجنائثه الى هذا المكان المملوء بأثامكم ، وكمجرم قبضتم
عليّ من أجل قليل من الزرع تستنبته الشمس لي ولكم على
السواء ، ولما استعطفتم باسم يسوع واستحلفتكم بأيام حزنه
وأوجاعه استهزأتم بي كأنسي لم اكلّم بغير الحماقة والجهالة .
خذوا وارجثوا في هذا الكتاب وأروني متى لم يكن يسوع
غفوراً . واقروا هذه المأساة السماوية واخبروني اين تكلم
بغير الرحمة والرأفة ، أفي موعظته على الجبل ، ام في تعاليمه
في الهيكل امام مضطهدي تلك الزانية المسكينة ، ام على
الجلجلة عندما بسط ذراعيه على الصليب ليضم الجلس البشري .
انظروا يا قساة القلوب الى هذه المدن والقرى الفقيرة ، ففي
منازلها يتلوّى المرضى على أسرة الأوجاع ، وفي جبوسها تفنى

أيام البأسين ، وامام ابوابها يتضرع المتسولون ، وعلى طرقها
ينام الغرباء ، وفي مقابرها تنوح الأرامل واليتامى ، وانتم
ههنا تتمتعون براحة التواني والكسل ، وتتلذذون بثمار الحقول
وخمور الكروم . فلم تزوروا مريضاً ، ولم تفتقدوا سجيناً ،
ولم تطعموا جائعاً ، ولم تؤووا غريباً ، ولم تعزّوا حزيناً .
وليتكم تكتفون بما لديكم وتقعون بما اغتصبت من جدودنا
باحتيالكم ، فأنتم تمدّون ايديكم كما تمدّ الافاعي رؤوسها ،
وتقبضون بشدة على ما وقّرته الارملة من عمل يديها وما ابقاه
الفلاح لأيام شيخوخته .

وسكت يوحنا ريثما استرجع انفاسه ثم رفع رأسه بفخر
وقال بهدوء : « انتم كثار ههنا وانا وحدي . افعلوا بي ما
شئتم ، فالذئاب تقترس النعجة في ظلمة الليل لكن آثار دماغها
تبقى على حصاء الوادي حتى يجيء الفجر وتطلع الشمس . »
كان يوحنا يتكلّم وفي صوته قوّة علوية توقف في ابدان
الرهبان الحركة وتثير في نفوسهم الغيظ والحدة ، ومثل غربان
جائعة في اقصاص ضيقة كانوا يرتجفون غضباً وأسنانهم تصرف
بشدة متوقبين من رئيسهم اشارة ليمزقوه تمزيقاً ويسحقوه
سحقاً ، حتى اذا ما انتهى من كلامه وسكت سكوت العاصفة
بعد تكسيروها الاغصان المتشاحمة والانصاب اليابسة ، صرخ

الرئيس بهم قائلاً :

« اقبضوا على هذا المجرم الشقي وانزعوا منه الكتاب
وجرّوه الى حجرة مظلمة من الدير ، فمن يجدف على مختاري
الله لا يغفر له هنا ولا في الأبدية . » فهجم الرهبان على يوحنا
هجوم الكواسر على الفريسة وقادوه مكتوفاً الى حجرة ضيقة
واقفلوا عليه بعد ان نهكوا جسده بـحشونة أكفهم ورفس
أرجلهم .

في تلك الغرفة المظلمة وقف يوحنا وقفة منتصر توفيق
العدو لأسره ، ونظر من الكوة الصغيرة المطلّة على الوادي
المملوء بنور النهار، فتهلل وجهه وشعر بلذّة روحية تعانق نفسه
وطمأنينة مستعذبة تملك عواطفه ، فالحجرة الضيقة لم تسجن غير
جسده، امّا نفسه فكانت حرّة تتموّج مع النسيم بين الطول
والمروج ، وأيدي الرهبان التي آلمت اعضاءه لم تمس عواطفه
المستأمنة بجوار يسوع الناصري . والمرء لا تعذبه الاضطهادات
اذا كان عادلاً ، ولا تفنيه المظالم اذا كان بجانب الحقّ ،
فسقراط شرب السمّ مبتسماً ، وبولس رجم فارحاً . ولكن
هو الضمير الحفي تخالفه فيوجعنا ، ونخونه فيقضي علينا .

وعلم والدا يوحنا بما جرى لوحيدهما ، فجاءت امه الى الدير
مستعينة بعصاها ، وتراقت على قدمي الرئيس تذرف الدموع

وتقبّل يديه ليرحم ابنها ويعتقر جهله . فقال لها بعد ان رفع عينيه نحو السماء كمرتفع عن العالميات : « نحن نعتقر طيش ابنك ونسامح جنونه ولكن للدير حقواً مقدّسة لا يبدّ من استيفائها . نحن نسامح بتواضعنا زلاّت الناس ، امّا الإشاع العظيم فلا يسامح ولا يغفر لمن يتلفون كرومه ويرتعون زرعه . » فنظرت اليه الوالدة والدمع ينسكب على وجنتيها المتجمعتين بأيدي الشيخوخة ، ثم نزعت قلادة فضيّة من عنقها ووضعتها في يده قائلة : « ليس لديّ غير هذه القلادة يا أبتاه ، فهي عطية والدتي يوم اقتراني، فليقبلها الدير كقّارة عن ذنوب وحيدي . » فأخذ الرئيس القلادة ووضعها في جيبه ثم قال ووالدة يوحنا تقبّل يديه شكراً وامتناناً : « ويل لهذا الجليل ، فقد انعكست فيه آيات الكتاب وأصبح الابناء يأكلون الحصرم والآباء يضرسون . اذهبي ايتها المرأة الصالحة وصلّي من أجل ابنك المجنون لتشفيه السماء وتعيد اليه صوابه . »

وخرج يوحنا من أسره ومشى ببطء امام عجوله بجانب امه المنحنية على عصاها تحت اثقال السنين ، ولما بلغ الكوخ قاد العجول الى معالفها وجلس بسكينة قرب النافذة يتأمّل اضمحلال نور النهار ، وبعد هنيهة سمع والده يهمس في أذن امه هذه الكلمات : « كم عارضتني يا سارة عندما كنت

أقول لك ان ولدنا مختلّ الشعور ، والآن أراك لا تعترضين
لان اعماله قد حققت كلامي ، ورئيس الدير الوقور قد قال
لك اليوم ما قلته انا منذ سنين . »

وظلّ يوحنا ناظراً نحو المغرب حيث الغيوم المتلبدة
متلوّنة بأشعة الشمس .

جاء عيد الفصح وتبدّل الانقطاع عن المآكل بالاكثر
من المشتبهات ، وكان قد تمّ بناء الهيكل الجديد المتعالي بين
المساكن في مدينة بشرتي كصرح امير قائم بين أكواخ
الرعايا . وكان القوم يتوقّبون قدوم احد الاساقفة ، لتكريسه
وتقدّيس مذبحه ، ولما شعروا بدنوه خرجوا صفوفاً صفوفاً
على الطريق وأدخلوه المدينة بين تهليل الفتيان وتسابيح
الكهنة وأصوات الصنوج وطين الأجراس والنواقيس ، ولما
ترجّل عن فرسه المزدانة بالسرج المزركش واللجام الفضي ،
قابله الأئمة والزعماء بمستطاب الكلام ، مترجّين به بالقصائد
والأنشيد المصدّرة بالمديح والمذيلة بالتبجيل ، حتى اذا ما بلغ
الهيكل الجديد ارتدى الملابس الجبريّة الموشّاة بالذهب ولبس
التاج المرصّع بالجواهر ، وتقلّد عصا الرعايا المنمّقة بالنقوش
البديعة والحجارة الكريمة وطاف حول الهيكل منغمّاً مع
الكهنة الصلوات والتقسيم ، وقد تصاعدت حوله روائح
البخور الطيّبة ، وشعشت الشموع الكثيرة ، وكان يوحنا
في تلك الساعة واقفاً بين الرعاة والزارعين على رواق مرتفع

يتأمل بعيديه الحزبتين هذا المشهد ، ويتنهّد بمرارة ويتأوّه
بغصّات موجعة اذ يرى من الجهة الواحدة ملابس حريريّة
مطرّزة وأواني ذهبيّة مرصّعة ، ومباخر ومشاعل فضيّة ثميّة ،
ومن الأخرى جماعة من الفقراء والمساكين الذين اتوا من
القرى والمزارع الصغيرة يشاهدون بهجة هذا النصح والاحتفال
بتكريس الكنيسة . من الجهة الواحدة عظمة ترتدي القطيفة
والاطالس ، ومن الأخرى تعاسة تلتف بالأطمار البالية . هنا
فئة قويّة غنيّة تمثّل الدين بالتنعيم والتعزيم ، وهناك شعب
ضعيف محتقر يفرح سرّاً بقيامة يسوع من بين الأموات
ويصلّي بسكينة هامساً في مسامع الأثير تهديدات حارة صادرة
من أعماق القلوب الكسيرة . هنا رؤساء وزعماء لهم من
سلطتهم حياة أشبه شيء بأشجار السرو ذات الاخضرار
الأبدية ، وهناك بؤساء وزارعون لهم من خضوعهم حياة
تشابه سفينة ، ربّانها الموت وقد كسرت الأمواج دفتّها ،
ومزّقت الرياح شراعها ، فأمست في هبوط وصعود ، بين
غضب اللجة وهول العاصفة . هنا الاستبداد القاسي ، وهناك
الخضوع الأعمى . فأيهما كان مولداً للآخر ؟ هل الاستبداد
شجرة قويّة لا تنبت في غير التربة المنخفضة ، ام هو الخضوع
حقل مهجور لا تعيش فيه غير الاشواك ؟

بهذه التأملات الاليمية وهذه الافكار المعذبة كان يوحنا مشغولاً وقد بكل زنديه على صدره كأن حنجرتة قد ضاقت عن أنفاسه فخاف ان يتمزق صدره حناجر ومنافذ . حتى اذا ما انتهت حفلة التكريس وهم الشعب بالانصراف والتفرق ، شعر بأن في الهواء روحاً تندبه واعظاً عنها ، وفي المجموع قوة تحرك روحه وتوقفه خطيباً امام السماء والأرض . أسر ارادته فتقدم الى طرف الرواق ورفع عينيه وأشار بيده نحو العلاء ، وبصوت عظيم يستدعي المسامع ويستوقف النواظر صرخ قائلاً :

« انظر يا يسوع الناصري الجالس في قلب دائرة النور الأعلى . انظر من وراء القبة الزرقاء الى هذه الأرض التي لبست بالأمس من عناصرها رداء . انظر ايها الحارث الامين ، فقد خنقت اشواك الوعر أعناق الزهور التي انعشت بذورها بعرق جبينك . انظر ايها الراعي الصالح ، فقد نهشت مخالب الوحوش ضلوع الحمل الضعيف الذي حملته على منكبيك . انظر فدمائك الزكية قد غارت في بطن الارض ، ودموعك السخينة قد جفت في قلوب البشر ، وأنفاسك الحارة قد تضععت امام رياح الصحراء ، وأصبح هذا الحقل الذي قدسسته قدماك ساحة قتال تسحق فيها حوافر الاقوياء ضلوع المنطرحين ،

وتبتزع أكفّ الظالمين أرواح الضعفاء... ان صراخ البائسين
المتصاعد من جوانب هذه الظلمة لا يسمعه الجالسون باسمك
على العروش ، ونواح المحزونين لا تعيه آذان المتكلمين
بتعاليمك فوق المنابر ، فالخراف التي بعثتها من اجل كلمة
الحياة قد انقلبت كواسر تمزّق بأنيابها أجنحة الخراف التي
ضممتها بذراعيك ، وكلمة الحياة التي انزلتها من صدر الله قد
توارت في بطون الكتب وقام مقامها ضجيج مخيف ترتعد من
هوله النفوس . لقد أقاموا يا يسوع لمجد أسمائهم كنائس
ومعابد كسوها بالحزير المنسوج والذهب المذوّب ، وتركوا
أجساد مختاريك الفقراء عارية في الأزقة الباردة ، وملأوا
الفضاء بدخان البخور ولهب الشموع ، وتركوا بطون
المؤمنين بألوهيتك خالية من الحبز ، وأفعموا الهواء بالتراتيل
والتسابيح ، فلم يسمعوا نداء اليتامى وتنهيدات الارامل . تعال
ثانية يا يسوع الحي واطرد باعة الدين من هياكلك ، فقد جعلوها
مغاور تتلوّى فيها أفاعي روغهم واحتياهم . تعال وحاسب
هؤلاء القياصرة ، فقد اغتصبوا من الضعفاء ما لهم وما لله . تعال
وانظر الكرمة التي غرستها يمينك ، فقد أكلت جذوعها
الديدان ، وسحقت عناقيدها أقدام ابن السبيل . تعال وانظر
الذين ائتمنتهم على السلام ، فقد انقسموا على ذواتهم وتحاصموا

وتحاربوا ، ولم تكن أشلاء حروبيهم غير نفوسنا المحزونة
وقلوبنا المضنكة . . . في أعيادهم واحتفالاتهم يرفعون
أصواتهم بجسارة قائلين : المجد لله في العلى وعلى الارض
السلام وبالناس المسرّة . فهل يتمجد ابوك السماوي بأن تلفظ
اسمه الشفاه الاثيمة والالسنة الكاذبة ؟ وهل على الارض
سلام وأبناء الشقاء في الحقول يفنون قواهم امام وجه الشمس
ليطعموا فم القوي ويألوا جوف الظالم ؟ وهل بالناس مسرّة
والبؤساء ينظرون بأعين كسيرة الى الموت نظرة المغلوب الى
المنقذ ؟ ما هو السلام يا يسوع الحلو ؟ هل هو في أعين الاطفال
المتكئين على صدور الامهات الجائعات في المنازل المظلمة
الباردة ؟ ام في أجساد المعوزين النائمين على أسرة حجرية
يتمنون القوت الذي يرمي به قفس الدير الى خنازيرهم المسمنة
ولا يحصلون عليه ؟ ما هي المسرّة يا يسوع الجميل أبان يشترى
الامير بفضلات الفضة قوى الرجال وشرف النساء ، وبأن
نسكت ونبقى عبيداً بالنفس والجسد لمن يدهشون أعيننا
بلمعان ذهب اوسمتهم وبريق حجارتهم وأطالس ملابسهم ،
أم بأن نصرخ متظلمين منددين فيبعثوا الينا بأتباعهم حاملين
علينا بسيوفهم وسنابك خيولهم فتسحق أجساد نساءنا وصغارنا
وتسكر الارض من مجاري دمائنا ؟ . . أمدد يدك يا يسوع

القوي وارحمنا لأن يد الظلوم قويّة علينا ، أو أرسل الموت
ليقودنا الى القبور حيث ننام براحة مخفورين بظل صليبك الى
ساعة مجيئك الثاني لأن الحياة ليست حياة عندنا ، بل هي ظلمة
تتسابق فيها الأشباح الشريرة ، وادٍ تدبُّ في جوانبه الثعابين
المخيفة . ولا الايام أيام عندنا ، بل هي أسياف سنيّة يخفيها
الليل بين لحب مضاجعنا ويشهرها الصباح فوق رؤوسنا عندما
تقودنا بحبة البقاء الى الحقول . ترأف يا يسوع بهذه الجموع
المنضّمة باسمك في يوم قيامتك من بين الاموات وارحم
ذلهم وضعفهم . »

كان يوحنا يناجي السماء والشعب حوله بين مستحسن
راضٍ ومستقبح غاضب . فهذا يصرخ : لم يقل غير الحق فهو
يتكلّم عتّا أمام السماء لأننا مظلومون . وذا يقول :
هو مسكون يتكلّم بلسان روحٍ شريرة . وذلك يقول :
لم نسمع قط مثل هذا الهذيان من آبائنا وجدودنا ولا نريد ان
نسمعه الآن . وآخر يمس في أذن قريبه : أحسست بقشعريرة
سحرية تهزّ قلبي في داخلي عندما سمعت صوته ، فهو يتكلّم
بقوّة غريبة . وغيره يجيب : نعم ولكن الرؤساء أعرف منّا
باحتياجاتنا فمن الخطأ أن نشك بهم .

وبينا هذه الاصوات تتصاعد من كل ناحية وتتألف كهدير

الامواج ثم تضع في الهواء، جاء أحد الكهنة وقبض على يوحنا
وأسلمه للشرطة فقادوه الى دار الحاكم ، ولما استنطقوه لم
يجب بكلمة لأنه تذكر ان يسوع كان سكوتاً امام
مضطهديه ، فأنزلوه الى سجن مظلم حيث نام بسكينة متكئاً
على الحائط الحجري .

وفي صباح النهار التالي جاء والد يوحنا وشهد امام الحاكم
بجنون وحيد قائلاً : « طالما سمعته يهذي في وحدته يا سيدي ،
ويتكلم عن أشياء غريبة لا حقيقة لها، فكم سهر الليالي مناجياً
السكون بألفاظ مجهولة ، منادياً خيالات الظلمة بأصوات مخيفة
تقارن تعازيم العرافين المشعوذين . سل فتیان الحی یا سيدي
فقد جالسوه وعرفوا انجذاب عاقلته الى عالم بعيد ، فكانوا
يخاطبونه فلا يجيب ، وان تكلم جاءت أقواله ملتبسة لا علاقة
لها بأحاديثهم . سل أمه فهي أدري الناس بانسلاخ نفسه عن
المدارك الحسيّة ، فقد شاهدته مرّات ناظراً الى الأفق بعينين
زجاجيتين جامدتين وسمعه متكلماً بشغف عن الأشجار
والجداول والزهور والنجوم ، مثلما تتكلم الأطفال عن
صغار الأمور . سل رهبان الدير فقد خاصهم بالأمس محقراً
تنسكهم وتعبدهم ، كافرأ بقداسة معيشتهم . وهو مجنون
يا سيدي ، ولكنه شقوق عليّ وعلى أمه ، فهو يعولنا في

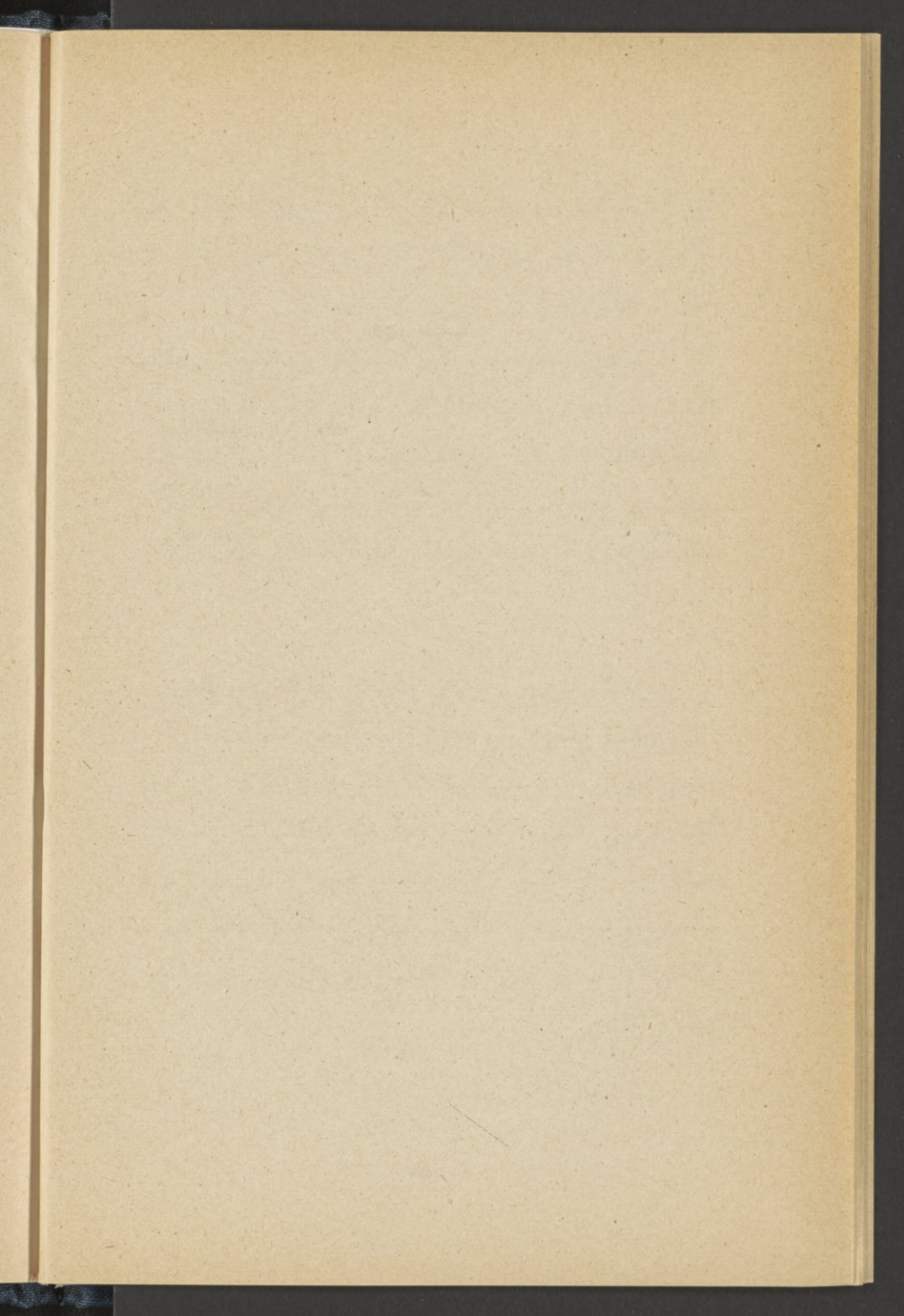
أيام الشيخوخة ويدرِف عرق جبينه من أجل الحصول على حاجتنا ، فترأف به برأفتك بنا ، واعتقر جنونه باعتبارك حنو الوالدين . »

أفرج عن يوحنا ، وشاع في تلك النواحي جنونه ، فكان الفتيان يذكرونه ساخرين بأقواله ، والصبايا ينظرن إليه بأعين آسفة قائلات : للسماء شؤون غريبة في الانسان ، فهي قد جمعت في هذا الفتى بين جمال الوجه واختلال الشعور ، وقارنت بين أشعة عينيه اللطيفة وظلمة نفسه المريضة .

بين تلك المروج والروابي الموشاة بالأعشاب والزهور ، كان يوحنا يجلس بقرب عجوله المنصرفه عن متاعب ابن آدم بطيب المرعى ، وينظر بعينين دامعتين نحو القرى والمزارع المنتثرة على كتفي الوادي مردداً هذه الكلمات بتنهيدات عميقة - انتم كشار وأنا وحدي ، فقولوا عنّي ما شئتم ، وافعلوا بي ما أردتم ، فالذئب تفترس النعجة في ظلمة الليل ، ولكن آثار دماها تبقى على حصباء الوادي حتى يجيء الفجر وتطلع الشمس .

فهرست

٣	رماد الأجيال والنار الخالدة
٢٠	مرتا البانية
٣٧	يوحنا المجنون



بلاغة العرب

في المهجر

أصدرت مكتبة صادر هذا الكتاب الحاوي مقالات بليغة
لثلاثة من كبار أدبائنا قضوا الشطر الأكبر من حياتهم في
المهجر وهم :

جبران خليل جبران . ميخائيل نعيمة . ايليا أبو ماضي .

كلمات جبران

أقوال ماثورة اختارتها مكتبة صادر لنا بغتنا الكبير جبران
خليل جبران ، وطبعتها طبعاً أنيقاً فجاءت طرفة من طرف
الأدب العربي تطالع فيها آراءه في الحياة والناس .

اقتنوا

المجموعة الكاملة لمؤلفات

جبران خليل جبران

أصدرتها مكتبة صادر في ثلاثة أجزاء كبيرة مطبوعة على
ورق أبيض صقيل تحتوي على المؤلفات التي كتبها باللغة العربية
مع دراسة تحليلية للاستاذ ميخائيل نعيمة .

وستصدر قريباً ترجمة مؤلفات جبران التي وضعها بالانكليزية
تحت اشراف الاستاذ نعيمة .

مؤلفات جبران خليل جبران

حجاً بتسهيل اقتناء مؤلفات جبران العربية القيّمة على
الجمهور فقد طبعتها مكتبة صادر كل كتاب على حدة ، وهي
التالية :

عرائس المروج

الأرواح المتمردة

الأجنحة المتكسرة

دمعة وابتسامة

المواكب

العواصف

البدائع والطرائف

مناهل الادب العربي

هي سلسلة فريدة من مختار الأدب العربي قديمه وحديثه .
تتولى اصدارها تباعاً مكتبة صادر، ويشرف عليها بعض كبار
الأدباء المحققين ، فيتعهدونها بالدرس والتحليل ، والشرح
والتدقيق والشكل ، على ما في الاختيار من عناية ظاهرة في
انتقاء أجود ما جاء به الكاتب او الشاعر ، مهما بلغ عدده
الأجزاء التي تستوعب آثاره ، بحيث أن من يقرأ مختاراته في المناهل
يستغني بها عن الرجوع الى ديوانه او مصنفاته ، لأن هذه المجموعة
لا تكنفي ، كغيرها ، بأن تعطي عن الأديب صورة مصغرة
لخصائصه وميزاته ، وانما تعني بأن تظهره على حقيقته في أحسن
انتاجه ، وأبقى آثاره ، فلا تهمل الا التافه والمبتذل ، وما لا
تسمح بنشره الآداب الدينية والاخلاقية ، وما يستغني عن كله
بشئ منه لأنه من قبيل المعاد والمكروور كما يظهر ذلك في
أكثر قصائد المدح والرثاء والهجاء ، وفي ما يتروء من النوادر
والأخبار المتشابهة ، وهي الى ذلك توجه المطالع والدارس الى
تفهم الكاتب والشاعر بما فيها من تنسيق فني للأبواب والأغراض ،
ووسمها بالعناوين .

فإلى مناهل الأدب العربي، أيها الأديب والمتأدب، والقارئ المتذوق، فإنها مكتبة شاملة جامعة، قائمة بنفسها، تزدان رفوفك بغلافها الملون المصور الجميل، ويرتوي غليلك بماها العذب الفياض، والسهل المساع، لا تضيق بها خزانتك للطف حجمها، وحسن منظرها، ولا يضيق بها صدرك لأنها لا تجاهك بالغلط والتجريف والغموض، بل تطالعك بكل لذيذ نافع طريف.

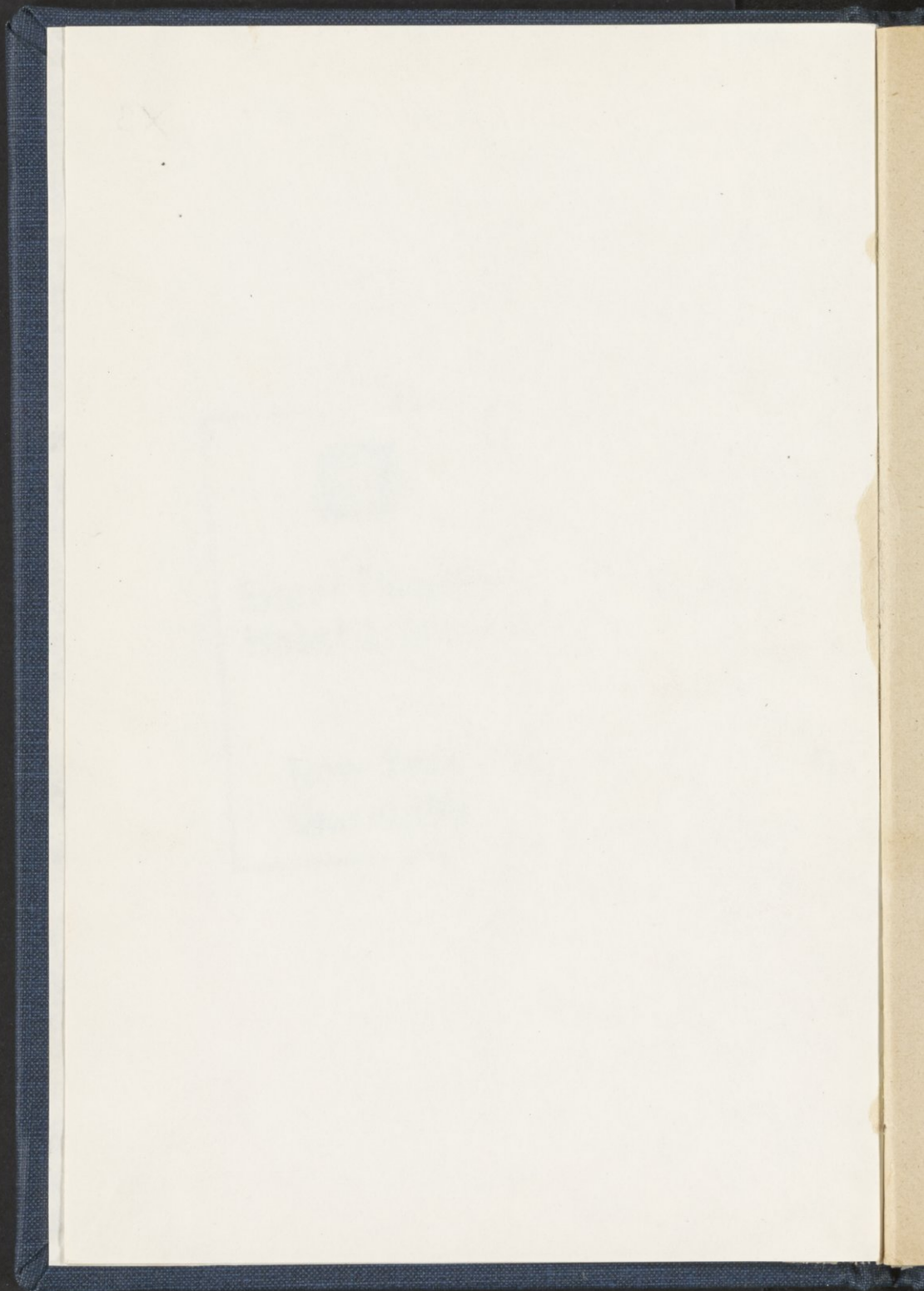
الاجزاء التي صدرت من هذه المجموعة حتى الآن

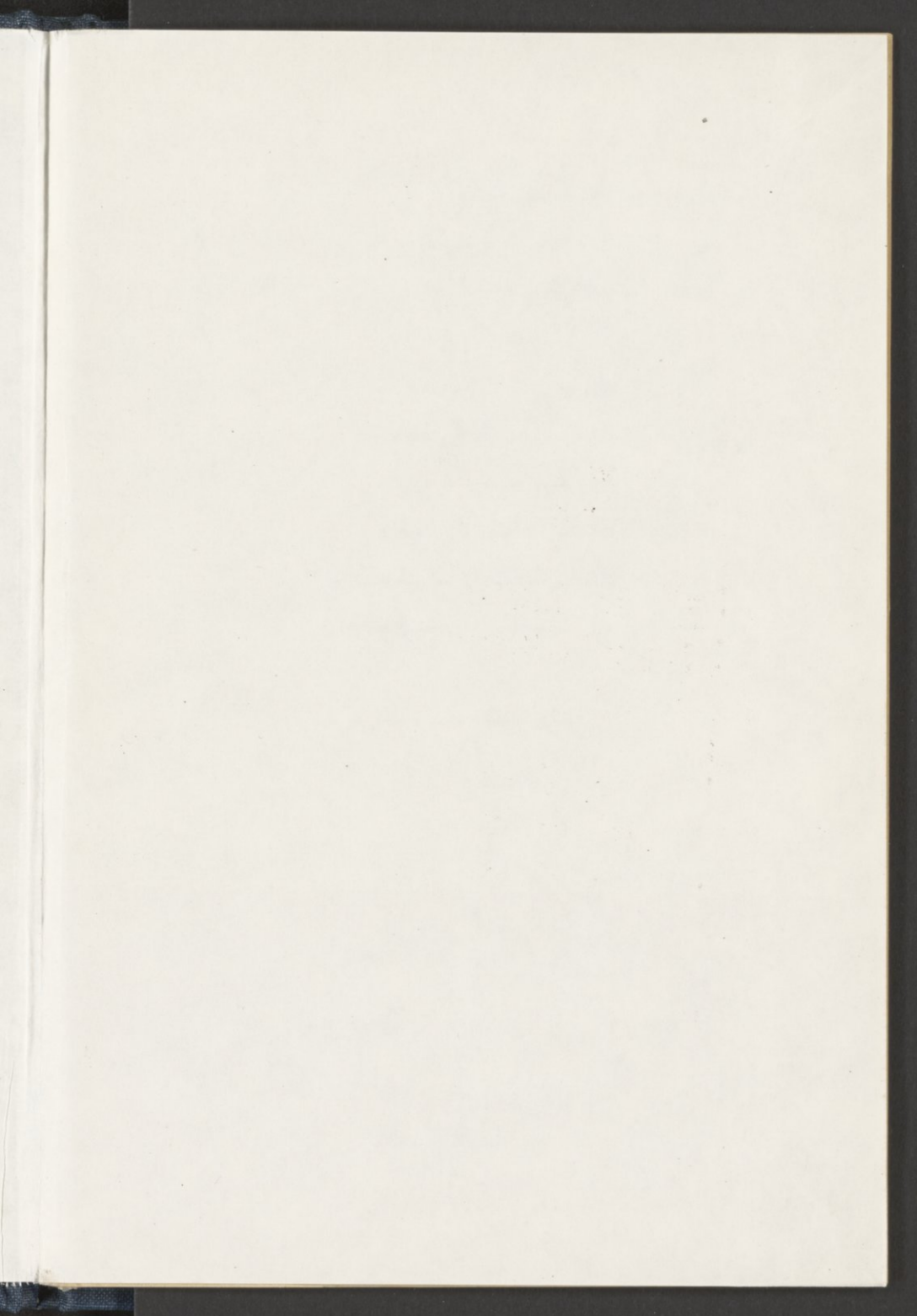
١	جبران خليل جبران	١٠٠
٢	ميخائيل نعيمة	١٠٠
٣	احمد فارس الشدياق	١٠٠
٤	ولي الدين يكن	١٠٠
٥	امين الريحاني	١٠٠
٦	ابو العلاء المعري - رسالة الغفران*	١٠٠
٧	ابو العلاء المعري - رسالة الغفران**	١٠٠
٨	ابو العلاء المعري - كتب مختلفة	١٠٠
٩	ابو العلاء المعري - اللزوميات*	١٠٠
١٠	ابو العلاء المعري - اللزوميات**	١٠٠

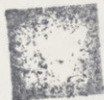
١١ بطرس البستاني	١٠٠
* ١٢ ابرهيم اليازجي	١٠٠
** ١٣ ابرهيم اليازجي	١٠٠
* ١٤ الشريف الرضي	١٠٠
** ١٥ الشريف الرضي	١٠٠
*** ١٦ الشريف الرضي	١٠٠
١٧ كرم ملحم كرم	١٠٠
* ١٨ الموشحات الاندلسية	١٠٠
** ١٩ الموشحات الاندلسية	١٠٠
*** ٢٠ الموشحات الاندلسية	١٠٠

الاجزاء المعدة للطبع وتصدر قريباً

ابن خلدون	١٠٠
الامام علي	١٠٠
نسب عريضة	١٠٠







**Elmer Holmes
Bobst Library**

**New York
University**

NYU - BOBST



31142 01474 3523

PJ7826.I2 A9 1949

Aras a